من الأعمـــــاق

للأستاذ أنور المعـــداوى

— ١ —

سأل نفسه وهو يشهد ليلة تنطوى وفجراً يبزغ : أيمكن أن تمر تلك الليلة على إنسان كما مرت عليه ؟ ... وسمع جواب نفسه منبعثاً من أعماقه : محال ... !

وكانت ليلة عيد ... ولا يذكر أنه أحس القفر فى حياته كما أحسه فى تلك الليلة ، ولا يذكر أنه أنكر دنياه كما أنكرها فى تلك الليلة ، ولا يذكر أنه استشعر الوحدة والغربة والفراغ كما استشعرها فى تلك الليلة ... لقد كان يشم فى كل شىء حوله رائحة الموت ، الموت الكريه البشع الذى يتراءى للأحياء فى الليالى السود ، ويلف الآمال فى أكفانه ، ويهيل على جمال الحياة أكوام التراب !

وأشرقت شمس العيد ترسل ضياءها إلى قلوب الناس إلا قلبه ... لقد بقى وحده فى الظلام ، ظلام الأمانى التى ذوت ، والفرصة الكبرى التى انطوت ، والدنيا التى ذهبت إلى غير معاد . ولأول مرة منذ سنين ، شعر بدافع قوى إلى البكاء ، وحاول أن يبكى ولكنه لم يستطع . لقد تجمدت الدموع فى عينيه ثم تحدرت إلى قلبه قطرات : فيها من دفء عاطفته ، وفيها من وقدة وجدانه ، وفيها من لوعة حرمانه ... وفيها من رهج أساه !

ونظر إلى السماء نظرة من يبحث عن شىء عزيز قد ضاع منه ، أو نظرة من يسأل السماء سؤالاً لا جواب عليه : أين يارب يجد الصبر وينشد السلوة ويلتمس العزاء ؟ كل شىء قد انتهى ، وكل جميل قد انقضى ، وكل زاوية من زوايا النور قد أغلقتها يد الزمن ... وها هو يمضى فى الحياة وحيداً بلا رفيق ، وغريباً بلا حبيب ، وجريحاً تخضبت معالم الطريق من فيض دمه !

إنه ليذكر كيف قضى ربيع العمر منطوياً على نفسه ، بعيداً عن الناس ، تصلى أفكاره فى محراب الشجن ... ويذكر كيف كان يختلس البسمة اختلاساً ، ويغتصبها اغتصاباً ، وترف على شفتيه رفيف الشعاع الحائر ترسله على جوانب الأفق شمس غاربة ! ... ويذكر كيف أتى عليه يوم انقلب فيه من حال إلى حال : ابتسم للحياة من قلبه ، وأضفى عليها من روحه ، وقبس لها من حبه ، وأصبح إنساناً غير الذى كان ...

لقد كان يسير فى طريق الحياة ولا يعرف إلى أين ... لم يكن له هدف يسعى إليه ، ولم تكن له غاية تسدد خطاه ، ولم يكن له أمل ! كل ما يذكره أنه لقى من مرارة السير فى الصحراء مالم يلقه إنسان : لقى فيها الشوك ، ولقى فيها القيظ ، ولقى فيها الصخر ، وذاق فيها ما ذاق من سفى الرمال ولفح السمائم ... ويذكر أنه لج يوماً على البعد واحة ، وأنه وقف مشدوها لا يصدق عينيه ، وقال لنفسه : سراب ! ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء ؛ وفجأة قالت له قدماه قف ، وقالت له عيناه أنظر ، وقالت له نفسه : هنا يا مسكين — لقد آن للاعب أن يستجم ، وللمجهد أن يستريح ، وللسفينة الحيرى فى خضم الحياة أن تبلغ الشاطىء !

ونظر إلى السماء نظرة طويلة ، حار فيها دمع واضطرب ريق ... واحة فى صحراء ؟ ونبع يتدفق سؤه ؟ وزهرة بدية بالعطر فواحة بالأرج ؟ كل هذه الأشياء يارب له ؟ أين كانت وأين كان ؟ ! ... وابتسم للحياة من قلبه ، وأضفى عليها من روحه ، وقبس لها من حبه ، وأصبح إنساناً غير الذى كان !

وألقى بالماضى كله فى زوايا العدم ... لقد كان يعيش فى حاضره ؛ حاضره الذى داعبته رؤى من المستقبل الباسم ، ورقصت على حواشيه أطياف من الأمل الوليد ، وانطلقت فى أرجائه صيحة العمر الذى بعث ... هناك حيث ينتظره المجد تدفعه إليه يد حانية ، وقلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وروح يرح بها الشوق إلى لقاء روح ؛ ويا بعد الدنيا التى كانت فى قلبه والدنيا التى تراءت لعينيه ! ...

— ٢ —

ومضت به الحياة فى طريقها تطوى الأيام ... الزهرة الحيية يسقيها من فيض عطفه ، والنبع الرقراق يسعى إليه إذا طال ظمؤه ، والواحة الوارفة تحميه بظلها من لفح الهجير ... يا صحراء : أين كانت الجنة ؟ لقد كانت فى رحابك وهما بغيضاً لا غناء فيه !

يا صحراء : أين كانت السعادة ؟ لقد كانت في عذابك حلماً مخيفاً لا تأويل له ! وأنت يا زهرته الحبيبة أين كنت ؟ لقد قالت له عيناك إن الجنة ليست وهما ، وإن السعادة ليست حلماً ، وإن ماضيه كله يمكن أن يختصر في لحظة من حاضره ؛ ماضيه الذي أصبح ذكرى في طوايا الغيب ، ووميضة في ثنايا الخاطر ، وصرخة كتمت أنفاسها يد النسيان .. !

وفي تلك الدار من ذلك الحي كان هواه ... يذهب إليها مع الصبح ، وحين يقبل الليل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ؛ ولن ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها : ملء يديه زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، وملء نفسه دنيا من الأحلام ... أبدا لن ينسى الوجه الذي كان يتلقاه باليدين حين يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدماء حين ينصرف مودعاً إلى لقاء قريب ...

ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن ، ويملك عليها المشاعر كل معنى جميل ... ولن ينسى أن صلته بها كانت عن هذا الطريق الذي جمع بين قلبها وقلبه ، وبين طبعها وطبعه ، وبين شعورها وشعوره ... ومن أجل هذا كله كان يدفع إليها بكل كتاب يقرؤه ، وكل مقال يكتبه ، وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه باقٍ من نفسها هوى ورعاية !

لقد كانت تعجب به حين يتحدث ، وحين يقرأ ، وحين يكتب ... أما هو ، فيشهد أنه لم يكن يكتب إلا لها ، لها وحدها ! لم يكن يهمه أن يرضي عنه الناس ما دامت هي راضية ، ولم يكن يحفل بأنه يتحدث عنه الناس ما دامت هي تتحدث عنه ... ولقد بلغ به الغرور وهو في غمرة إعجابها به حداً جعله يعتقد أن ليس هناك من يكتب خيراً منه ، ولا من يفهم خيراً منه ، ولا من يتذوق آثار الأدب والفن خيراً منه ! ! ... وكان حين يسألها عن أي المجلات الأدبية تحب ، وحين يتلقى جوابها مشفوعاً بأسباب التفضيل والإيثار ، يبعث إلى هذه المجلة بمقال ، وإلى تلك بغيره . لقد كان يود دائماً أن يرى نفسه إلى جانبها ، حتى إذا عاتبته يوماً على غيابه الذي طال اعتذر لها بأنه كان معها بالفكر والروح ، وحسبها وحسبه أن يلقاها ويلقاه ... بين السطور والكلمات ! وتشهد دار الرسالة كلما ظهر له في الرسالة مقال ، أنه كان يقصد إليها في يوم السبت ليحمل إليها العدد قبل صدوره لتكون هي أول من يقرأ مقاله وأول من ينقده ...

لقد كانت تحرص دائماً على أن تكون أسبق الناس إلى لقائه ؛ تلك التي كان يرجو أن تصبح يوما شريكة حياته ... وكم بنى من قصور الأوهام ما شاءت له فنونه وشجونه ! كم أقام على دعائم الخيال عشهما المنتظر ؛ عشهما الجميل الهادىء ، ذلك الذي يملؤه الأطفال أنساً ومرحاً وبهجة ، تملؤه هي حباً وحناناً ورحمة ! !

يا دنيا الأدب والفن ، يا دنيا الجمال والنبل ، يا دنيا الجلال والطهر ، أنت التي دفعته بيديك إلى الأمام فأنسيته كل معنى من معاني الوراء ، وأنت التي بعثت الحياة في وجدانه فأنسيته كل معنى من معاني الفناء ؛ وأنت ، وأنت ، وأنت ... فأين أنت ؟ ! أين يا دنيا ذهبت معالمك ، وغاض بشرك ، ونضب بهاؤك ؟ يا دنيا ما أقبحك ، وما أحقرك ، وما أهونك ... حين يضيع فيك الأمل ويخيب الرجاء ! !

— ٣ —

وأبدا لن ينسى يا دار هواه ، يا من كنت وحي قلمه ومهبط إلهامه وحديث أمانيه ... لن ينسى حين غاب عنك أياماً ثم ذهب ليرى أهلك في آخر يوم من رمضان : ملء يديه كما كان بالأمس زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، وملء نفسه دنيا من الأحلام ... لقد كنت يا دار واجمة ، كئيبة ، يبرح في جنباتك الصمت ويطبق السكون ! أين يا دار من كانت تفتح له أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها ؟! أين ... أين ؟ لقد قالوا له إنها مريضة ... مريضة ؟ وهرع إلى حجرتها مسلوب الوعي ، مرتاع الخطو ، ملتاع الضمير ، وأخذ مكانه إلى جانبها وتناول يديها بين يديه ، وألقى على الوجه الشاحب نظرة سكب فيها من ذوب قلبه كل ما أدخرته له الليالي وحفظته الأيام !

أما هي فلم تنطق بكلمة ؛ لقد أطبقت شفتيها الذابلتين ، وشع من عينيها بريق عتاب لونته الدموع ...

وأطرق برأسه إلى الأرض برهة ، وطوفت نظراته الذاهلة هنا وهناك كأنما تبحث عن الألفاظ الحيرى في ساعة اللقاء الرهيب .. واستطاع بعد جهد أن يجمع شتات نفسه ليقول لها : لا أدري كيف أعتذر إليك .. أحقا كنت غائباً وأنت مريضة ؟ كيف بالله لم يحدثني قلبي ؟ .. ألا تغفرين لي ؟!

وأمام اللهفة الحرى والخشوع الضارع والصمت المبتهل ، غفرت له ! !

وبالحظة الغفران كم خففت من وخز ضميره، وكم حلت من عبء عذابه، وكم قربت بينه وبين الله!

ومضى يحدثها وتحدثه، ويا عجبا... لقد عاد إلى الوجه الشاحب إشراقة الفجر، وإلى الوجنة الذابلة نضارة الورد، وإلى النظرة الفاترة صفاء النبع، وإلى الجسد المنهك تدفق العافية!

وقالت له وهي تستوى في سريرها جالسة: أنظر.. ألا ترى أن العافية قد عادت إلى بعودتك؟ فأجاب والفرحة الجارفة تهز كل ذرة في كيانه: لو كنت أعلم لعدتك قبل اليوم، ولما تركتك نهباً لعوادي السقم! ومضى يحدثها وتحدثه، ويقرأ لها وتصغى إليه، ويبنى لها من قصور الأوهام ما شاءت له فنونه وشجونه.

وتقول له وهي في غمرة الأماني وزحمة الأحلام: بالله دعنا من المستقبل وخلنا في الحاضر... إن غداً ليوم عيد، فهل فكرت في أن تهيء لنا مكاناً جميلا نقضي يومنا فيه؟! ويقول في صوت تنطلق فيه الهمسة من لجاج روحه: أما العيد فأنا اليوم فيه... وأما المكان الجميل فقد هيأته لك في قلبي!

وترنو إليه معجبة، ويرتسم على شفتيها ظل ابتسامة فاتنة، وتهتف من الأعماق قائلة له: هل تعرف أنك تجيد فن الحوار؟. لماذا لا تعالج كتابة القصة؟... أنا في انتظار اليوم الذي تكتب فيه قصتك الأولى.

ويعدها بأن يكتب قصته، ويودعها وتودعه، وينطلق عائداً إلى بيته على أن يراها في صباح العيد... ولم يكن يعلم أن المقادير تدخر له أسود ليلة في رصيد العمر، وأبشع صباح في حساب الشعور! ولم يكن يدرك أن ما رآه من ومضات العافية حين جلس إليها كان أشبه بومضات المصباح قد فرغ زيته، فهو يرسل أسطع أضوائه قبل أن ينطفيء، ويترك الحياة من حوله يختنق فيها النور تحت قبضة الظلام!

لقد طوى الموت في المساء صفحة عمر، وغيب القبر في الصباح أحلام عذراء. ولقد رغبت إليه أن يكتب قصته الأولى، فإليك يا قبرها يقدم أول قصة وآخر قصة.

وكل حقيقة بعدها وهم، وكل واقع بعدها خيال، وكل إيمان بعدها شك، وكل وجود بعدها عدم.. وكل معنى من معاني الخير والجمال بعدها هباء!

أنور المعداوى

من رمال المصيف

رسائل في قصيدة

«إلى التي خطرت كالنداء، ثم عبرت بغير سلام أو وداع»

للأستاذ علي محمود طه

إذا أقبل الليلُ يا حيرتى ... تفقَّدتُ في الشط حوريَّتى
وعُدت كئيباً إلى غرفتى ... أراعي الكواكب من شرفتى
وأشعل بالوجد سيجارتى ... فلا البدر حيَّيت لي سهرتى
ولا البحر هدَّأ من ثورتى ... وحيداً تسامرني فكرتى!

أأجلس يا بحر وحدى هنا ... فأين من العين ذاك السَّنى
وأين من القلب تلك المنى ... وأين مواعيدُ نادت بنا
وأين المساء الذي ضمَّنا ... لديك وألَّف ما بيننا
فيا ويح قلبي ماذا جنى ... ليحمل هذا الأسى والضنى!

خلا من مُحياك هذا المصيف ... وأقفر ذاك الندىُّ اللطيفُ
كأني به قد دهاه الخريف ... فليس عليه خيالٌ مطيف
ذوى بشرُه فهو أفق كسيف ... وبرٌّ حزينٌ وبحرٌ لهيف
وموج له أنَّةٌ أو وجيف ... وريحٌ تنوح وليلٌ شفيف

غداً يا حبيبةُ عند المساء ... ستسأل عنا نجوم السماء
ألم يضربا موعداً للقاء ... على صخرة بين رمل وماء؟
أجل يا حبيبةَ هذا الضياء ... ذهبنا وعُدنا بحكم القضاء!
غريبين نضرب عبر الفضاء ... كأنا على جفوة أو تنائي

مددت إليك يد الوائق ... فعادت بلذع جوى حارق
وأبعدت يا رحمة الخالق ... فم الحبِّ عن نبعك الدافق
تعالىْ إلى روحي الوامق ... تعالى إلى قلبي الخافق
تعالى على عهدك السابق ... تعالى إلى الفلك العاشق!

(سيدي بشر)

علي محمود طه